

الرضا في العاقبة والمآل



obeikandi.com

الرضا

في العاقبة والمآل

من المعلوم أن الرضا في العاقبة له مقدماته من العمل الصالح في الدنيا، وأن الذين تطيب نفوسهم بالجزاء في الآخرة هم الذين أحسنوا في الدنيا.

ومن عرف للعاقبة قدرها، لم يُلْهِه شيء عن التعلُّق بها، والحرص على إحراز أسبابها.

وكان رضاه بالعاقبة ذا تأثير بالغ في ذات نفسه ومعاملة غيره.

ولكلُّ شيء عاقبته، ولكلُّ عملٍ جزاؤه.

وعاقبة الأعمال تختلف باختلاف الأعمال ذاتها، وباختلاف مقاصدها وغايتها.

فمن عمل الخير وسعى له، غير من أراد الشر وعمل به.

والرضا هناك لا يكون إلا لمن حسنت عاقبته، ولا يجد الإنسان هناك إلا ما عمل.

وذاك ما حكّم به الله وذكّر به في كتابه.

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ ﴿ (١)

(1) الزلزلة: ٧، ٨.

العاقبة واقعة لا محالة، وهي لله وحده، والله عاقبة الأمور.

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (1).

وهنا يكون الرضا في العاقبة ثمرة إسلام وإحسان، ويكون الخسران فيها جزاء عتو وطغيان.

والعاقبة عندما تُذكر - هكذا - في القرآن الكريم دون إضافة،

لا تكون إلا للمتقين. وعندما تُذكر مضافة فهي بحسب ما تُضاف إليه.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2).

﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (3).

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَىٰ جَمَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (4).

وإن أُضيفت إلى « الدار » فهي للذين اتقوا، وهم أهل الفوز والنجاة.

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

(1) لقمان: ٢٢.

(2) هود: ٤٩.

(3) طه: ١٢٢.

(4) القصص: ٨٢.

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ (1)

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ (2)

وَعُقْبَى الدَّارِ (الجنة)، بل (جنات عدن) إقامة وخلود.

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ لَنْ يَجْرِيَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثَرُ دَائِمًا

وَوَظَلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٢٥﴾ (3)

وعاقبة الأمور قد تقع في الدنيا، وقد تقع في الآخرة.

وما يقع في الدنيا من: ظلم، وفساد، ومكر، وكفر، وتكذيب

بآيات الله، تُرى عاقبته في الدنيا.

وساحة الحياة الدنيا مليئة بدمارٍ وهلاك.

ومداولة الأيام بين الناس تحكي للناس سنن الله في خلقه، وتربهم

ما وقع بالظالمين والمكذابين من قبلهم.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٦﴾ (4)

(1) الرعد: ٢٢.

(2) الرعد: ٢٣، ٢٤.

(3) الرعد: ٢٥.

(4) آل عمران: ١٢٧.

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ (1)

وَمَنْ أَصْرًا عَلَى ظَلْمٍ أَخَذَ بِهِ، وَكَانَ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ بَعْدَهُ.

﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ

مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢﴾ (2)

وَإِذَا وَقَعَ الدَّمَارُ بِقَوْمٍ، وَأَخَذُوا بِذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، كَانَ حِسَابُهُمْ

وَجَزَائِهِمْ - مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ - أَنْكَرَ وَأَشَدَّ.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿٣﴾ فَذَاقَتْ وَتَالِ أَمْرَهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٤﴾

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ

اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٥﴾ (3)

فَالْمَوْتُ لَيْسَ عَاقِبَةُ الْمَطَافِ لِلظَّالِمِينَ، وَالدَّمَارُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ هُوَ

عَاقِبَةُ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ مَقْدِمَةٌ لِخُسْرَانٍ وَعَذَابٍ مُقِيمٍ.

(1) القصص: ٤٠.

(2) فاطر: ٤٤.

(3) الطلاق: ٨ - ١٠.

والموت لهؤلاء أهون مما بعده، وإن كان أشد مما قبله.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (1).

من هنا كانت الدعوة إلى العاقبة والعمل لها هو منهج القرآن الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ لتسلم الأولى من ظلم وفساد، وتسلم الأخرى من سوء عاقبة وخسران. وإذا عرّف الناس عاقبة الأعمال فقد بطلت المَعذرة، وانقطعت الحجة.

ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن، وعُرِفَ البيان. ولم يبق للناس إلا أن يختاروا لأنفسهم - وقد أُعذروا وأُنذروا، وقد جاءهم من الله نورٌ وكتابٌ مبين - لم يبق لهم إلا أن يختاروا لأنفسهم - طائعين - ما يترتب على أعمالهم، محسنين أو مسيئين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا

وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (2).

والعاقبة هي (الجنة) لمن اتقى وأحسن.

وفيها يكون الرضوان والنعيم المقيم.

وتلك هي «عاقبة الدار».

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ

(1) طه: ١٢٧.

(2) النجم: ٢١.

كذالك تجزي الله المتقين ﴿٣١﴾ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين^٢
يقولون سلم عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴿٣٢﴾ (1)

وهنا يكون الرضا - في العاقبة والمآل - خالصاً سائغاً، لا يشويه
كدر ولا نصب، ولا خوف شقاء وجرمان.
وهذا ما ينادى به أهل الجنة.
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهلها.
ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة - رضي الله عنهما -
أن رسول الله ﷺ قال:

يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا..
وَأَنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا..
وَأَنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا..
وَأَنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَسُوا أَبَدًا..
فَذَلِكَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ (2) « (3)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(1) النحل: ٣١، ٣٢.

(2) الأعراف: ٤٣.

(3) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: « يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ». فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: « هَلْ رَضِيْتُمْ ؟ ».

فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟

فَيَقُولُ: « أَلَا أُعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ »

فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟

فَيَقُولُ: « أَحُلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » (1)

تلك هي العيشة الراضية التي ذكرها الله في سورتي "الحاقة" و"القارعة" حيث قال:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ أَوْ كَتَبْتَنِي ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ

﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ

الْحَالِيَةِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِيَةَ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ (2)

وقال: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ

النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا

(1) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(2) الحاقة: ١٨ - ٢٥.

في روضة القرآن = الرضا

مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا آذْرُكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾ ﴿١﴾

إِنَّ الرُّضَا يَتَّسِعُ مَدَاهُ، فيشمل ما كان من سَعْيٍ فِي الدُّنْيَا، وما يكون من نعيمٍ مقيمٍ فِي الآخِرَةِ.

ولا يدع صاحبه فِي موتٍ أو احتضار.

نجد دلالة ذلك فِي سورتي "الغاشية" و "الفجر":
ففي سورة "الغاشية":

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيًّا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ ﴿٢﴾

وَفِي سورة "الفجر":

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿١١﴾ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿١٢﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿١٣﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿٣﴾

فهل من همةٍ عاليةٍ تنشُد الرُّضَا فِي جميع المواطن والأحوال ؟

إِنَّ ذلك يستلزمُ التمسُّكَ بأمرين عزيزين فِي مُعْتَرَكِ الحَيَاةِ:
التُّقَى.. والصَّبْرُ ..

(1) سورة القارعة.

(2) الغاشية: ٨ - ١١.

(3) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

فإنهما مفتاحُ حُسْنِ العواقبِ في العاجلة والآخرة.
وهما جماعُ كُلِّ خيرٍ وبرٍّ..
وسبيلُ كُلِّ نصرٍ وفوزٍ..
وبهما يردُّ كُلُّ مكرٍ وكيدٍ.

﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ (1).

﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (2).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3).

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (4).

إن الرُّضَا في العاقبة والمآل مرتبطين بإيثار الباقيات الصالحات في

الدنيا، ولا يكون ذلك إلا لمن خاف مقامَ ربِّه، ونهى النفسَ عن الهوى.

عندئذ تستروح النفسُ - بصبرها وتقواها - في مواجهة الشدائد

والمكاره، وهي تُسبِّحُ بحمد ربِّها آناء الليل وأطراف النهار، فتدري خيرها

فيما تدخره هناك، لا فيما تملكه هنا من زينة أو متاع..

فيكون الصبرُ مُعيناً على الثبات حتى الممات.

(1) آل عمران: ١٢٠.

(2) آل عمران: ١٨٦.

(3) آل عمران: ٢٠٠.

(4) يوسف: ٩٠.

وتكون التَّقْوَى وافيةً من الْمُحِبَّاتِ والمبطلات والمهلكات.
وَيَعْمَ الصَّبْرُ صَبْرُ الْعِزَّةِ والقُوَّةِ والثَّبَاتِ وَحُبُّ المَكَارِمِ.
وَيُعْمَتِ التَّقْوَى لِلإنسانِ حينَ يَكُونُ له مِنْهَا خَيْرٌ زادَ في المِغَارِمِ
والمِغَانِمِ.

وليسَتِ التَّقْوَى قَوْلًا بلا عَمَلٍ، أو سَلْبًا وَبُعْدًا عن مُعْتَرِكِ الحِياةِ.
وليس الصَّبْرُ ضَعْفًا أو هَوَانًا وهو يُسْتَمَدُّ من حُسْنِ الصَّلَةِ باللهِ.
روى البخاريُّ، عَن عَلِيٍّ - رضي اللهُ عنه - أَنَّ فَاطِمَةَ - رضي اللهُ عنها -
شَكَتْ ما تَلَقَى في يَدِها مِنَ الرَّحَى، فَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ؛ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَلَمْ
تَجِدْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ.
قَالَ: فَجَاءَنَا، وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ أَقُومُ
فَقَالَ: «مَكَانِكَ».

فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَيَّ صَدْرِي
فَقَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ ما هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا
إِلَى فِرَاشِكُما، أو أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُما، فَكَبَّرًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبَّحًا
ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ. فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ» (1).
قَالَ عَلِيٌّ - رضي اللهُ عنه -: «ما تَرَكَتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ».
فَقِيلَ لَهُ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟
قَالَ: «وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ» (2).

(1) البخاري: كتاب الدعوات.

(2) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

أرأيت - أخي - كيف يكون إيثارُ الباقيات الصالحات ؟
 يأمر الرسول ﷺ بالتمسك بها والحرص عليها؛ فهي خير مما يسأله
 الإنسانُ من حاجات الدنيا وزينتها التي تذهب ولا تبقى.

أخرج الطبراني، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - مرفوعاً:
 « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول
 ولا قوة إلا بالله، هُنَّ الباقيات الصالحات ». (1)

وأخرج النسائي، عن كعب بن عُجرة - رضي الله عنه - قال:
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مُعَقَّبَاتٌ (2) لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ.
 يُسَبِّحُ اللَّهُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيَحْمَدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ،
 وَيُكَبِّرُهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ». (3)

إن الموازنة بين الباقيات والذاهبات، بين ما يبقى وما يفتنى، أمرٌ
 يحتاج إلى بصيرة وحسن تدبر؛ ليكون اختيار الإنسان وإيثاره ما يبقى
 فطرياً لا تكلف فيه، وإيماناً لا رهبانية معه.

والله - عز وجل - رحمةٌ بخَلْقَةٍ يُعِينُهُمْ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، مِنْ إِثَارِ
 الباقيات الصالحات، بآيات بيّنات في أنفسهم، وفي الآفاق من حولهم.
 وقد حَفِظَ لَهُمْ مَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابٍ؛ لِيَكُونُوا - دَائِمًا - عَلَى بَصِيرَةٍ

(1) المعجم الكبير: ٥١/٦.

(2) سُمِّيَتْ "معقبات" لأنها تُعَاد مرّةً بعد مرة، أو لأنها تُقَال عقب الصلاة. والعقب من كل
 شيء: ما جاء عقب ما قبله (راجع: شرح السيوطي على سنن النسائي ٧٥/٣)

(3) النسائي: كتاب السهو.

فيما يختارون لأنفسهم أو يعلمون.
 ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (1)

فليوازن من شاء بين الزينة والقيمة.
 والله - عزَّ وجلَّ - لم يَنْهَ عن الاستمتاع بالزينة في حدود الطيبات
 ولكن الموازنة - هنا - تقتضي ألا نجعل من الزينة قيمة تُزنُ بها
 الناس، ونعرف أقدارهم.
 إنها « زينةٌ » وكفي !
 والزينة تذهب، والقيمة تبقى.
 وربما رأينا رجلاً ليس له من الزينة شيئاً، ولكن له من القيمة ما
 يثقل ميزانه.

الموازنة الصادقة - هنا - تجعلنا نعرف قدرَ هذا وذاك على أساس
 مما يبقى، لا بالنظر إلى ما يذهب ويفنى.
 فقد يكون هذا خيراً من ملء الأرض من مثل ذلك.
 كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن سهل بن سعد الساعدي -
 رضي الله عنه - قال: مرَّ رجلٌ على رسولِ الله ﷺ
 فقال: « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ »

(1) الكهف: ٤٦.

قَالُوا: حَرِيٌّ⁽¹⁾ إِنْ حَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ.

قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ

فَقَالَ: « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ »

قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ حَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا ».⁽²⁾

والذين آثروا الباقيات الصالحات قد أحسنوا الموازنة، فأخلصوا مع أنفسهم في الاختيار، ورضوا بالقيمة التي تبقى مهما واجه صاحبها في الدنيا من متاعب ومصاعب.

جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء - رضي الله عنه - فقال: « أوصني ».

فقال: « اذْكُرْ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي السَّرَّاءِ يَذْكُرْكَ فِي الضَّرَّاءِ، وَإِذَا

أَشْرَفْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا فَانظُرْ إِلَى مَاذَا يَصِيرُ »⁽³⁾

فليعرف الإنسان مصير ما يرجوه وما تتعلق نفسه به..

وليوزنه بميزان حق وصدق.

وفي الأرض عبرٌ وعظات تحثُّ الناسَ على أن يختاروا لأنفسهم

الباقيات الصالحات. فالذين جمعوا كثيراً، وأملوا بعيداً أين ذهبوا ؟ وإلى

(1) أي: جديرٌ وخليق.

(2) البخاري: كتاب النكاح.

(3) صفة الصفوة: ٦٢٩/١.

أين وصلوا 5

« أَلَا إِنَّ قَوْمًا بَنَوْا مَشِيدًا، وَجَمَعُوا عَتِيدًا، وَأَمَلُوا بَعِيدًا، فَأَصْبَحَ بُنْيَانُهُمْ قُبُورًا، وَجَمَعُهُمْ بُورًا، وَأَمَلَهُمْ غُرُورًا ».

ذاك ما تُخبرنا به وقائع الحياة، وثرينا إياها.

فلا غرابة أن نسمع أبا الدرداء - رضي الله عنه - يقول:

« ابن آدم، طأ الأرضَ بقدميك؛ فإنها عمًا قليل قبرك.

ابن آدم، إنما أنت أيامٌ، فكلما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك.

ابن آدم، إنك لم تزل في هدمٍ عمرك منذ ولدتك أمك »

هذا الكلام ليس وعظاً يُراد به ترقيق القلوب فحسب، وإنما هو

كلامٌ حقٌ وصدقٌ يُراد به أن يُحسن الإنسانُ إلى نفسه في اختيار ما

يرضاه ليُحسن عاقبته.

وفي الدنيا يقعُ الاختبارُ في ملحمةِ الابتلاء والفتنة، ولن يسلم

الإنسانُ من فتنٍ مَوْجُها كالجبالِ إلا إذا سَلِمَ من هوى نفسه، وخاف مقامَ

ربه، ورأى ما عنده، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

عندئذ يكون رضاه عن الله مُمتدًّا في جميع مراحلِه، في دُنياه،

وعند فراقها، وعندما ينظر كُلُّ امرئٍ ما قدَّمت يداه.

وويل لكلِّ جماعٍ فاغِرٍ فاهُ، كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ يَرى ما عند الناس، ولا

يرى ما عند الله!

عن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال:

اِحْفَظُوا مِنِّي مَا أَقُولُ لَكُمْ . سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا

كَنَزَ النَّاسُ الدَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَكَنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ.

وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ.

وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ.

وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ.

وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا.

وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا.

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ.

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ.

وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ» (1).

أرأيت - أخي القارئ - دلالة هذه الكلمات، وما توحى به هذه

الدعوات..

إنها تُرشدك إلى أن تأخذَ نفسك بأسباب الباقيات الصالحات،

وأنت تعمل في دُنْيَاكَ بثباتٍ ورُشدٍ في مرضات ربِّكَ.

فتطيب لك دُنْيَاكَ بسلامة قلبٍ، وصدقِ لسان.

وتسلم لك آخرتكَ برحمةٍ من ربِّكَ ورضوان.

وأنت تسأله وتعوذ به وتستغفره آناء الليل وأطراف النهار، واثقاً،

خائفاً، راجياً، توقِّنُ أنَّ ما أنت فيه منه وإليه، وأنك له، وأنك - لا محالةً

(1) أحمد: مسند الشاميين.

- راجع إليه.

فلا ترضى إلا بما رضى..

ولا تؤثر إلا ما أحب..

ولا تكون إلا حيث يرضى ويحب.

عندئذ يكون رضاك مرتبطاً برضاه..

ومسعاك محمودٌ بخشيته وتقواه.

وصبرك على المكاره صبرٌ من يعرف غايته ومبتغاه.

وذلك ما كان من أمر علي وفاطمة - رضي الله عنهما - وهما يؤمران

بما هو خير.

فيحرصان عليه، ويكتزان منه، ولا ينقطع ذلك منهما، ولا

يُشغلان عنه.

وكذلك يكون حال من رضى عن ربه، وأثر رضاه، وهو يُوقنُ

بلقائه، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه.

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال:

ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب

كتب به إليّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فإنه كتب إلى يقول:

أما بعد: فإن المرء يسوءه فوت ما لم يكن ليُدركه.

ويُسره درك ما لم يكن ليفوته.

فليكن سرورك بما نلت من أمرٍ آخرتك.

وليكن أسفك على ما فاتك منها.

وما نلت من دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرَنَّ بِهِ فَرْحًا.

وما فاتك منها فلا تأسَ عليه حُزْنًا.

وليكن همُّكَ فيما بعد البعد .»

وعن عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ:

« كُنْ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ، لَمْ يُعَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ

تَمْشِي، مَا تُحْطِي مِشْيَتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ

بِهَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي. ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَهَا،

فَبَكَتُ بِكَاءٍ شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا، سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ.

فَقُلْتُ لَهَا: حَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسُّرَارِ ثُمَّ أَنْتِ

تَبْكِينَ !

فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ؟

قَالَتْ: مَا كُنْتُ أَفْشِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ.

قَالَتْ: فَلَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ - بِمَا لِي عَلَيْكَ

مِنَ الْحَقِّ - لِمَا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟

فَقَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي أَنَّ

جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارِضُهُ

الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْرَ اقْتِرَابِ، فَاتَّقَى اللَّهَ وَأَصْبِرِي؛ فَإِنَّهُ

نِعَمَ السَّلْفُ أَنَا لَكَ.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بِكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَنِي

الثَّانِيَةَ، فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ، أَمَّا تَرْضَيْنِ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ

سَيِّدَةَ نِسَاءٍ هَذِهِ الْأُمَّةِ ۙ .

قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ ۙ .⁽¹⁾

متى ضَحِكْتُ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها - ۙ ومتى بَكَتُ ۙ

بَكَتُ عندما علمت أَنَّ والدَهَا ﷺ قد حضر أَجْلَهُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ

تَبْكِي وَهِيَ الَّتِي قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَعَلَ يَتَغَشَّاهُ:

« وَكَرَبَ أَبْتَاهُ »

فَقَالَ لَهَا ﷺ: « لَا كَرَبَ عَلَيَّ أَبِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ ۙ .⁽²⁾

فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَتْ: « يَا أَبْتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبْتَاهُ مَنْ جَنَّتُهُ

الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبْتَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ نُنَعَاهُ ۙ .⁽³⁾

فَلَمَّا دُفِنَ ﷺ قَالَتْ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها -: « يَا أُنْسُ، أَطَابَتْ

أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثُّرَابَ ۙ ۙ .⁽⁴⁾

ومتى ضَحِكْتُ - رضي الله عنها - ۙ

ضَحِكْتُ لَمَّا أُخْبِرْتُ بِمَا تَلَقَاهُ عِنْدَ رَبِّهَا، وَقَالَ لَهَا ﷺ:

« أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ

الْأُمَّةِ ۙ »

هنا الرُّضَا - كل الرضا - في العاقبة والمآل، لِمَنْ رَضُوا عَنِ اللَّهِ

(1) مسلم: كتاب فضائل الصحابة.

(2) ابن ماجة: كتاب الجنائز.

(3) البخاري: كتاب المغازي.

(4) البخاري: كتاب المغازي.

ورضي الله عنهم.

فاحرص - أخي - أن تكونَ منهم، ولا تكن من أولئك الذين يضحكون ملاء أفواههم وهم لا يدرون إن كان ربُّهم راضٍ عنهم أو ساخط عليهم.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ ۞ (1)

فاحفظ صفات هؤلاء، وكن منهم، واستعن بالله.

واحفظ ما قاله لقمان لابنه؛ لتعم بالرضا في دنياك وأخراك.

اثنان لا تتسهما قط: الله، والدار الآخرة..

واثنان لا تذكرهما قط: إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك.

(1) التوبة: ٧١، ٧٢.